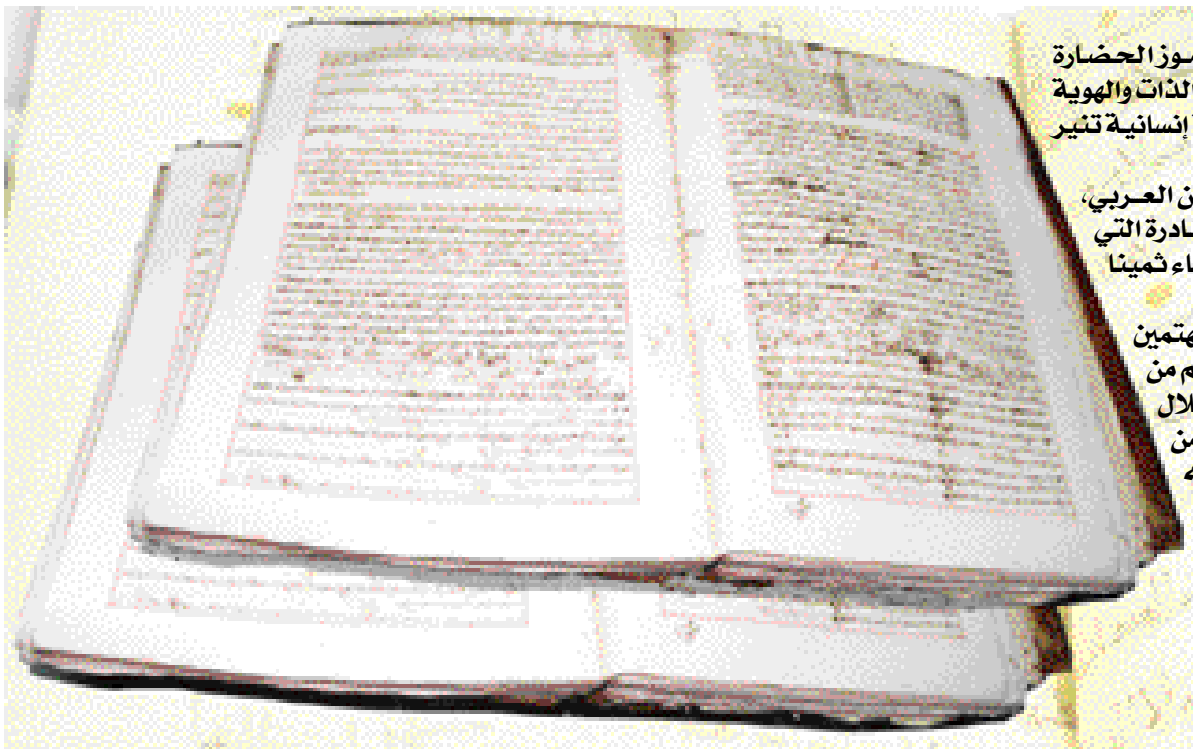

□.. تمثل المخطوطات العربية والإسلامية رمزاً هاماً من رموز الحضارة ومشعلا يضيء جوانب هامة من مجد الأمة وصورة معبرة عن الذات والهوية انها ليست تراثاً عربياً وإسلاميا فحسب ،بل وقيمة حضارية إنسانية تنير مسيرة التاريخ للأجيال القادمة.

اليمن توصف بأنها أكبر خزانة للمخطوطات في الوطن العربي، فالمكتبة اليمنية تضم عشرات الآلاف من المخطوطات النادرة التي تتميز بتنوع مواضيعها في مختلف الفنون والعلوم، تمثل وعاء ثمينا احتفظت فيه الأمة بذاكرتها ودونت فيه مآثرها ووقائعها.

المخطوطات اليمنية كنوز معرفية وثروة ثمينة للباحثين والمهتمين بتاريخ العالمين العربي والاسلامي ،إلا أن هذه الكنوز لم تسلم من المؤامرات والأطماع التي امتدت اليها من وراء البحار خلال العقود الماضية وبأقنعة مختلفة هدفت إلى تفريغ البلاد من تاريخها وعقلها من خلال اخراج أهم وأغلى ما كانت تحتضنه خزائننا من نفائس الكتب والمخطوطات بأبخس الأثمان وأحيانا بلا ثمن !!

تحقيق/ محمد عبدالله السيد

اليمن أكبر خزانة للمخطوطات!!

يتفق الجميع بأن بلادنا تمتلك ثروة ضخمة وغزيرة من المخطوطات ،لكنهم يختلفون حول الرقم الدقيق لحجم هذه الكنوز لتظل الاجتهادات والأرقام التقريبية التي تسمعها من الباحثين والقائمين على هذه المخطوطات سيدة الموقف ،أما القول الفصل فلن يصدر إلا بعد إجراء مسح ميداني لهذا التراث يشمل الدور والمراكز والمكتبات الحكومية والخاصة بعموم البلاد.

مليون مخطوطة

ففي الوقت الذي يقدر فيه الباحثون أمثال المستشرق الألماني (أريو إن) الذي عمل ثلاث سنوات خبيراً متطوعا بهيئة الآثار والمخطوطات عدد المخطوطات بحوالي مليون مخطوطة متناثرة في المكتبات والمراكز والمساجد أو في حوزة بعض الأفراد داخل اليمن وخارجها يشير المعنيون بدار المخطوطات إلى تضارب المعلومات حول التقديرات الحقيقية لحجم المخطوطات ،فهناك من يقول بأن العدد يصل الى أكثر من (٢٨٠) الف مخطوطة، فيما يؤكد العديد من المؤرخين أن النسبة تتجاوز هذا الرقم بكثير، خاصة مع الاكتشاف الأخير للمخطوطات القرآنية التي عثر عليها بالصدفة في سطح الجامع الكبير بصنعاء عام ١٩٧٢م والتي قدرت بنحو (٤٠) الف مخطوطة بينها (١٢) الف رق جلدي قرآني.

هذه الحالة من الضبابية التي تخيم على واقع هذه الثروة الهامة يؤكدها أيضا المؤرخ اليمني القاضي إسماعيل الأكوع الذي أسس الهيئة العامة للآثار ودور الكتب عام ١٩٦٩ وتولى رئاستها حتى ١٩٩٠م، فالقاضي الأكوع يرى ان نسبة كبيرة من المخطوطات توجد في بيوت العلم والمكتبات الشخصية في المدن والهجر والقرى لكنها غير معروفة ولا مفهرسة ومنها ما يتم بيعه لهواة شراء الكتب أو تجار المخطوطات بأثمان بخسة حيث تتوزع ذاكرة الأمة على جميع المدن اليمنية والمكتبات والخزائن الشخصية التي عدّدها القاضي إسماعيل الأكوع في كتابه (هجر العلم ومعاقله في اليمن) الذي كتبه على مدى عشرين عاما بأكثر من خمسمائة خزانة للمخطوطات ،فيما يرجع الباحثون والمختصون في الهيئة العامة للآثار والمخطوطات، أسباب عدم وجود إحصائيات دقيقة لحجم المخطوطات الى عدم إكتمال مشروع المسح والحصر الميداني للمخطوطات في محافظات الجمهورية والذي بدأ العمل به عام ١٩٩٨م.

إلا أن الباحث اليمني عبدالوهاب المؤيد الذي أعد (١٤) دراسة ميدانية متكاملة حول المخطوطات والمكتبات الخاصة ،يشير الى تفاوت الأرقام والاحصائيات التقديرية حول أعداد المخطوطات ما بين (٢٠٠) الف ومليون مخطوطة تتوزع هذه المخطوطات على جميع محافظات الجمهورية الـ(٢١) أهمها محافظات (صنعاء ،تعز ،صعدة، إب ،حضرموت، الحديدة، ذمار، الأمانة).

● أما الأخ/ عبدالملك المقحفي أمين عام دار المخطوطات فلم يستبعد أن يصل العدد الى مليون مخطوطة موجودة في المكتبات والخزائن الشخصية والمكتبات التابعة لوزارتي الأوقاف والثقافة بما فيها الأبحاث والرسائل والوثائق.

مكتبات الأوقاف

على الرغم من إنشاء دار خاص للمخطوطات عام ١٩٨٠م يتبع الهيئة العامة للآثار والمتاحف يكون نواة لمركز إشعاع ثقافي ومعلماً حضارياً إلا أن ما يوجد في هذا الدار يعد جزءاً يسيراً، حيث تتقاسم كل من وزارتي الثقافة والأوقاف مهمة الإشراف على المخطوطات ،وهو ما ينظر إليه العديد من المعنيين بأنه ازدواجية في المهام وتشتت في الجهود، خاصة مع وجود المئات من المكتبات التي تنتشر في عموم البلاد وتضم آلاف المخطوطات القيمة والنادرة، وتمتاز بتنوع وثراء لايقارن، المكتبة الشرقية الموجودة داخل الجامع الكبير بصنعاء ومكتبة الأحقاف بترميم حضرموت يمثلان أهم المكتبات التي تتبع وزارة الأوقاف.

□ عشرات الآلاف من المخطوطات تحتفظ بذاكرة الأمة ومآثرها □ خزائن تضم نفائس الكتب وتكشف مراحل تدوين القرآن □ مصاحف نادرة تعود إلى القرن الثالث الهجري أهمها بخط الإمام علي

فالزائر للمكتبة الشرقية مثلا يجدها تضم أكثر من ٣٠٠٠ مخطوطة من العلوم المختلفة و ٤٠٠٠ مصحف مخطوط، أقدمها وأهمها مصحف الإمام علي كرم الله وجهه الذي شاركه في كتابته الصحابي زيد بن ثابت وسلمان الفارسي ،وورقه من جلد الغزال وخط بالخط الكوفي ،حيث يعد هذا المصحف ضمن سبعة مصاحف كتبت في المدينة المنورة ثم أرسلت الى الأقطار الإسلامية وكان هذا المصحف هو نصيب اليمن.

وتزخر المكتبة الشرقية الى جانب هذا بالعديد من نوادر المخطوطات التي يعود تاريخها الى ١٠٣ للهجرة مثل ديوان (ذي الرمه) وهو مكتوب بالخط الكوفي ،وكذلك الجزء الرابع والثامن من كتاب سيبويه ،بالإضافة الى كتاب (المغني) للقاضي عبدالجبار بن أحمد شيخ المعتزلة المتوفي سنة ٤١٥هـ وهو بحسب كلام المعنيين يعد النسخة الوحيدة في العالم.

كما توجد بعض المخطوطات المكتوبة بالذهب مثل القاموس المحيط للفيروز بادي وكذلك (الإسعاف في شواهد الكشاف) للشيخ خضر بن عطا الله الموصلي الذي أكمل تاليفه سنة ١٠٠٣هـ، ويوجد عدد كبير من الكتب بخط مؤليفها مثل (الفتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية في علم التفسير) لشيخ الإسلام الإمام محمد بن علي الشوكاني ،بعض أجزاء من (فتح الباري) شرح صحيح الإمام البخاري بخط الإمام الحافظ ابن حجر.

أما مكتبة الاحقاف بترميم بمحافظة حضرموت التي تم إنشاؤها عام ١٩٧٢م، فتحتوي على نسبة كبيرة وهامة من هذا التراث ،حيث تشير العديد من التقارير إلى أنها تضم نحو (٦) آلاف مجلد مخطوط ،يصل عدد عناوينها إلى أكثر من (١١) الف عنوان كتاب ورسالة وبحث في شتى الفنون والمعارف أهمها التفسير والتصوف وعلم الفقه وعلم الطب والحديث وعلم التاريخ والسير واللغة والأدب بالإضافة إلى مخطوطات نادرة ومؤلفات لبعض من الأقطار العربية والاسلامية.

المكتبة الغربية

حتى نضع النقاط على الحروف كان يجب علينا التوجه إلى المكتبة الغربية ودار المخطوطات وكلاهما يخضعان لإشراف الهيئة العامة للآثار والمتاحف التابعة لوزارة الثقافة والسياحة ،فالمكتبة الغربية تضم أكثر من أربعة آلاف مجلد مخطوط تشمل (١١) الف عنوان ما بين كتاب وبحث ورسالة تتوزع تاريخيا ما بين القرن الرابع والقرن الخامس عشر الهجريين، أما أقدم مخطوط فيعود تاريخه إلى سنة ٣٦٦هـ وهو كتاب (الإحكام) للإمام الهادي في علم الفقه.

وتتوزع هذه المخطوطات جغرافيا على بلدان وأقطار العالم الإسلامية من حيث انتساب المؤلفين أو المصنفين لها ومن هذه الأقطار مصر والمغرب واليمن وتركيا وإيران والسعودية وبلاد الشام والعراق، حيث تشمل هذه العلوم ٣١ علماً، ومن أهم محتوياتها كتاب (المغني) في البيطرة و(الغريبين) في اللغة والحديث للإمام الهروي المتوفي سنة ٤٠١هـ ،والعقد الفاخر للخزرجي و(صفة جزيرة العرب) للهمداني المؤرخ اليمني الكبير وكذا كتاب (الأغاني) للأصفهاني الذي يعود الى القرن السادس الهجري.

إلى دار المخطوطات

نواصل رحلتنا في عالم المخطوطات اليمنية، ولكن هذه المرة إلى ما يعرف بـ(دار المخطوطات) الذي يعود تاريخ إنشائه إلى ١٩٨٠م.. أمين عام الدار عبدالملك المقحفي قال لنا: هناك خمسة أهداف رئيسية تقف وراء إنشاء المكان أهمها تجميع وحفظ التراث العربي والإسلامي والقيام بصيانة وترميم وتجليد المخطوطات وتسهيل الخدمات للباحثين.

● وعن محتويات الدار وأهم ما يحتضنه من تراث ،يقول عبدالملك المقحفي:

يمكن لنا أن نقسم محتويات الدار طبقاً للنوع إلى ثلاثة أقسام.

– النوع الأول (المخطوطات) ويبلغ مجموعها بالدار حوالي ٤٠٤٧ مجلداً مخطوطاً في مختلف الفنون والمعارف.

– النوع الثاني (المصورات الفلمية): ويصل عددها إلى أكثر من (١٥٠٠) مخطوط، منها ما هو موجود بالمكتبة «الغربية» أو مكتبة الأوقاف (الشرقية) أو المكتبات الخاصة، بالإضافة إلى مجموعة من المخطوطات القيمة قامت بتصويرها من أماكن مختلفة من اليمن البعثة المصرية الموفدة من قبل جامعة الدول العربية في الخمسينات ومجموعة مصورة من قبل بعثة معهد المخطوطات العربية.

– والنوع الثالث (الرقوق القرآنية): وهي التي تم العثور عليها في الجامع الكبير بصنعاء عام ١٩٧٢ ويصل عددها إلى أكثر من عشرة آلاف قطعة رقية تضم مجموعة ٨٠٠ مصحف غير مكتمل بينها ما يقرب من ١٠٠ مصحف مزخرف وجميع القطع ينحصر عصرها بين القرن الأول الى القرن الرابع الهجري، وقد تم توثيقها، وبالنسبة لنوادر المخطوطات الموجودة بالدار، تعتبر الرقوق القرآنية من أقدم النماذج في العالم، ولايوجد لها مثيل حتى الآن سوى في جامع معاذ بن جبل بالقيروان بتونس ومكتبات المخطوطات بتركيا ولايستبعد وجود نماذج أخرى في أماكن مختلفة من العالم إلا أن ما يوجد لدينا يعد من النفائس الثمينة وأكبر كنز تراثي على مستوى العالم، كونها تكشف المراحل المختلفة لتدوين المصحف الكريم، وهناك نماذج كتبت قبل تنقيط القرآن ونماذج بعد التنقيط ونماذج لايوجد فيها حركات الإعراب والتشكيل واخرى تفتقد إلى الزخارف، بالإضافة إلى كتابتها بخطوط مختلفة كالخط المكي أو المدني والخط الحجازي المائل والكوفي وغيرها، وجميعها تشكل مجالاً خصباً للدارسين والباحثين والمحققين.

أما المخطوطات الورقية فأقدم وأندر مخطوطة مكتوبة بالخط الكوفي تم نسخها سنة ٣٦٦هـ.

هذا من ناحية القدم أما من الناحية العلمية فمعظم المخطوطات التي لدينا تمثل ثروة علمية عظيمة ليس للعالم العربي والإسلامي فحسب بل للعالم أجمع لما تحتويه من فنون وعلوم ومعارف في شتى مناحي المعرفة البشرية، وذلك في ثلاثين فناً رئيسياً أهمها علوم القرآن والحديث والسيرة النبوية وعلم الكلام والفقه والتصوف وعلم المواريث وعلم اللغة والآداب والتاريخ والتراجم وغيرها.

ترميم

الزائر لدار المخطوطات الذي يضم ثلاثة أدوار مع مرافقه المختلفة لايجده عبارة عن صندوق لحفظ المخطوطات فقط بل انه يتمتع بكوادر مؤهلة تؤدي خدمات علمية وفنية في مجال التوثيق والفهرسة والتصوير على أفلام المايكروفيلم وعلى الورق، وعلى أعمال الترميم والتجليد وحفظ المخطوطات وتقديم الخدمات للباحثين.

أحمد مسعد المفلحي مدير الترميم والصيانة بالدار يؤكد أن العديد من المخطوطات التي تصل إلى الدار تكون في حالة سيئة ،فهي إما تعرضت لكسور أو تفتت وثقوب أو لحموضة عالية.

حيث تقوم الإدارة بمتابعة ودراسة حالة المخطوطات في مكتبات الدار ومكتبة الأوقاف من خلال عمل توصيف مادي لكل مخطوطة يتم بموجبها تحديد قرار ترميم المخطوطة ونوع الترميم ،فقد تم ترميم نحو (١٢٠٠) مخطوط ورقي وحوالي (٦٠٠٠) رق قرآني وغيرها من المخطوطات التابعة للأشخاص والمؤسسات.

ويشدد المفلحي على أهمية التاهيل المستمر للكادر العامل في الدار من خلال التعرف على كل جديد في هذا المجال والاستفادة من تجارب الآخرين.

□ ١٢ الف رق قرآني ينحصر تاريخها ما بين القرنين الأول والخامس الهجريين □ البعثات والمستشرقون يصطادون أغلى محفوظات الخزائن اليمنية بأبخس الأثمان

تفريغ ذاكرة الأمة !

شكلت ظاهرة تهريب المخطوطات الى الخارج أكبر تحد للجهات المختصة وأصبحت مشكلة مؤرقة للجميع بعد ان كادت تتحول الى مرض خطير يستعصي على العلاج فخلال العقود الماضية تعرض هذا التراث الإنساني الى عمليات تهريب متكررة، وصفت بعض العمليات بأنها تهريب من العيار الثقيل، خاصة تلك التي تمت على يد الرحالة والمستشرقين والبعثات الأجنبية التي رفعت في الظاهر شعار التنقيب والدراسة وفي الباطن كان المتاجرة هو الهدف.

يروي الدكتور/ محمد عيسى صالحية في كتاب (تغريب التراث) أغرب وأعجب الخطابات عن تهريب المخطوطات والآثار اليمنية من بوابة الجزء الجنوبي من الوطن، وكيف تمكن التجار الأجانب من أقطار اوروبية مختلفة أن يحملوا معهم أهم وأغلى ما كان على وجه الأرض من آثار وأهم ما كانت الخزائن اليمنية تحتفظ به من نفائس الكتب والمخطوطات وبأبخس الأثمان أو بلا ثمن ،وذلك في مسلسل طويل هدف إلى تفريغ الوطن من روحة وتاريخه وعقله.

يقول عبدالملك المقحفي أمين عام دار المخطوطات: ظاهرة تهريب المخطوطات ظاهرة مقلقة ومحزنة في نفس الوقت فكما يعلم الجميع بأن نسبة كبيرة من هذا التراث اليمني خرجت في وقت مبكر إلى خارج البلاد ،معظمها كان عن طريق البعثات الأجنبية والمستشرقين الذين اهتموا بدراسة التراث العربي والإسلامي، فعلى سبيل المثال البعثة الدانماركية برئاسة نيبور التي زارت اليمن في نحو ١٧٦٣م وضمت ستة أشخاص متخصصين في مجالات الطب والصيدلة والنبات والمجالات الاجتماعية والرسم حيث قامت البعثة بتجميع حوالي (٧٠) صندوقا تضم مخطوطات وأعشاب طبية نادرة.

كما أن هناك تاجراً إيطالياً أقام في مدينة الحديدة الساحلية قبل (١٠٠) عام ،حيث كان يقوم بأخذ المخطوطات من السكان ومقايضتهم بدلا عنها بالطعام بسبب المجاعة التي أصابت المدينة ،أما المكتبات الاوروبية التي وصلتها المخطوطات اليمنية فتتوزع ما بين مكتبة الأمبروزيانا بإيطاليا التي يوجد فيها (١٠.٠٠٠) مخطوط ومكتبة الكونجرس الأمريكية (٧٠) مخطوطاً ومكتبة المتحف البريطاني ومكتبة برلين ومكتبة الأسكوريال في أسبانيا، إضافة إلى العديد من المكتبات الهندية التي وصلت إليها بواسطة المهاجرين، وكذا المكتبة السليمانية بتركيا، والمكتبة الوطنية بباريس وغيرها.

فيما يؤكد آخرون أن المخطوطات اليمنية تتوزع أيضا على مكتبات الفاتيكان وسويسرا وهولندا وألمانيا وإيطاليا ورومانيا وروسيا وبولندا وغيرها.